تجليات الحســد فــي مــرآة القصص القرآني ـ سورة يوسف أنموذجا

أ . د. حمزة مســعود الطوير ـ أكاديمية الدراسات العليا / جنزور

Manifestations of envy in the mirror of Quranic stories - Surah Yusuf as a model

Attempts to reform the psyche and prevent social corruption are based on an understanding of human reality, which is based on the approach of the Holy Qur'an, which indicates that the psyche is the repository of behavioural motives that make man responsible for all his actions, and in this study I aspire to reflect on the verses of the Qur'an that deal with the negative psychological aspect of envy. In this study, I aspire to reflect on the verses of the Qur'an that deal with the negative psychological aspect of envy, and the innate characteristics of the psyche that prove its limitations and confirm its inability to manage its life affairs except in accordance with what is destined for it and in a perfect way .

Psychological studies indicate that envy is a reprehensible behaviour resulting from negative emotions that lead to jealousy, anger, hatred, and attempts at revenge; it is not just an internal feeling, but a psychological complex and a strong motive that may lead the envious person to engage in crime.

Translated with DeepL.com (free version)

المُلخّـــــــــــص:

إن محاولات تهذيب النّفوس ودفع الفساد الاجتماعي تنبني على فهم الواقع البشري فهما ينبع من منهج القرآن الذي يشير إلى أن النفس مستودع الدوافع السلوكية التي تجعل الإنسان مسؤولاً عن جميع تصرفاته، وفي هذه الدراســـة أطمح إلى التأمل في آيات القرآن التي تعنى بالجانب النفسي السلبي المتمثل في الحسد، وما تتصف به النفس من جبلاّت فطرية تثبت قصورها وتؤكد عجزها عن تدبير شؤون حياتها إلا وفق ما قُدّر لها وإتماماً للفائدة، وقبل أن نتحدّث عن مفهوم الحسد وآثاره يحسن بنا أن نقدّم لمحة موجزة عن سورة يوسف ﷺ . وتُشــير الدّراسات السيكولوجية إلى أن الحسد باعتباره سلوكا مذمومًا ينجم عن مشاعـــر سلبية يؤدّي إلى الغِيرة والغضب والبُغض، ومن ثم محاولة الانتقام؛ لأنه ليس مجرد شعور داخلي، بل هو عقدة نفســـية ودافع قوي قد يدفع بالحاسد إلى الانخراط في سلك الإجرام

تقديـــــــــم :

الحمد لله الذي أنــزل الفُرقان على عبـده هدىً ونورًا، وصلى الله على خـير من قرأ القرآن وتدبّر آياته، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيراً.

وبعـــد:

إن محاولات تهذيب النّفوس ودفع الفساد الاجتماعي تنبني على فهم الواقع البشري فهما ينبع من منهج القرآن الذي يشير إلى أن النفس مستودع الدوافع السلوكية التي تجعل الإنسان مسؤولاً عن جميع تصرفاته؛ إذ هو المســؤول عمّا كسب من أعمال حتى إنه ليُجادل عنها عند الحساب ﴿ **يَوْمَ تَأْتِـــي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾(1)؛لأن النفس تكسب عملها بمحض حريتها واختيارها وإرادتها، فتكون رهينة عملها الذي ستُحاسب عليـــه ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَة** ﴾(2)

ورغـم ورود لفــظ النفس في آي التنزيل بدلالات متعددة تحمل مجموعة من الخصائص الثنائية التي تتراوح بين الخير والشر، فإن المستقرئ للقرآن الكريم يجد آياته تنظر إلى هذه النفس على أنها كلٌّ متكامل. فهي تدل على الذات الإنسانية بكاملها، وهي المصدر الأساس للسلوك المرتبط بالملكات العقلية والانفعالات الوجدانية المتمثلة في الإحساس باللذة والألم وما يُرغب فيه أو عنه.

وفي هذه الدراســة أطمح إلـى التأمـل فـي آيـات القـرآن التـي تعنـى بالجانـب النفسـي السلبي المتمثل في الحسد، ومـا تتصـف بـه الـنفس مـن جـبلاّت فطريـة تثبـت قصـورها وتؤكد عجزها عن تدبير شؤون حياتها إلا وفق ما قُدّر لها، حيث يكون الإيمان العنصـر الفاعل الذي يكبح جماح النفس ويعود بها إلى أصل الفطرة الإنسـانية ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَيٰهَا** ﴾(3)؛ لأن كل نفس مجبولة على ما يسمى بالشعور الديني الفطري في الإنسان، ومفطورة على معرفة الله أولاً؛ لاحتياجها إليــه في كل وقت وحين، وفي كل أمر وتدبير، ثم يكون من بعد الاختيار المدفوع بعوامل التنشئة والآثار البيئية.

كما أطمح أن يستبين القارئ حال الحاسد " إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر ومبادئ الإضرار بالمحسود، قولاً وفعلاً "(4)

وإتماماً للفائدة، وقبل أن نتحدّث عن مفهوم الحسد وآثاره يحسن بنا أن نقدّم لمحة موجزة عن سورة يوسف عليه السلام تمكيناً للقارئ من أن يحيط بأبعاد الموضوع وأطره وما يتعلّق به، فقد صورت هذه السورة كثيراً من العقد التي تعتري النفس البشرية مخلّفة مظاهر الانحراف السلوكي والاضطرابات النفسية (5)

بين يدي ســــــورة يوسف ﷺ:

تنساب آيات هذه السورة على نمط رتيب في مائة وإحدى عشرة آية، حـوت قصة يوسف ﷺ كاملة بكل ما فيها من أحداث وشخصيات وبيئة في لوحة حسّية تصويرية يعجز البشر والجن عن مضارعتها والتأليف على منوالها، وهي من السور المكية التي رُتّبت على نسق عجيب، فحوت القصة بمسرحها الذي أقيمت.

وقد نزلت هذه السورة بعد هود، وقبل الحِجر، وهــي الســورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السّور، قال ابن عاشور "، وهي مكيّة على القول الذي لا ينبغي الالتفات إلى غيره، وقد قيل: إنّ الآيات الثلاث من أوّلها مدنيّة " (6)

ومما يدلّ على أنها مكية ما جاء في كتاب الإصابة أن أبا رافع بن مالك أول من قدم المدينة بسورة يوسف، يعني بعد أن بايع النبي -ﷺ- يوم العقبة " وأن رافع بن مالك لما لقي رسول الله ﷺ بالعقبة أعطاه ما أنزل عليه في العشر سنين التي خلت فقدم به رافع المدينة ثم جمع قومه فقرأ عليهم " (7) فكان فيما قرأ على القوم سورة يوسف

ولم يــرد اسم النبي يوسف- ﷺ - في القرآن الكريم إلاّ في هذه السورة وفي الأنعام وغافر، ولم تُذكر قصته في القرآن إلا مــرة واحدة على خلاف قصص الأنبياء الآخرين، غير أنها جاءت كاملة بكل أحداثها، ولعل ذلك راجع إلى أن هذه السورة قد حاولت معالجة العديد من الظواهر السلبية والعقد النفسية التي تؤدي إلى الانحراف السلوكي والاضطرابات المجتمعية، إضافة إلى ما في ذلك من الإعجاز والتحدي في الإتيان بمثل هذا القصص فقد " ذكر الله أقاصيصَ الأنبياء في القرآن، وكرَّرها بمعنى واحدٍ في وجوهٍ مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات المبالغة، وقد ذكـر قصـــة يوســف - ﷺ - ، ولم يكـــرِّرها؛ فلم يقدر مخالفٌ على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرِّر "(8)

ومن مقاصد هذه السورة تسلية النبي ﷺ ؛ ليهوّن عليه ما لقيه من كفار قومه، بما فيها من العبرة ببيان ثمرة صبر الأنبياء على البلوى، وما يكون لهم العاقبة، وأن لطف الله بمن يصطفيه من عباده، ومن ثم يعمل القرآن على طمأنة فؤاد النبي ﷺ بقوله ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ**﴾ ثـم يـذكّره بنعمـة الإيقـاض بعد الغفلة والتعليم بعد الأمية (**وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ**﴾، فقد نبّـه القـرآن إلــى أن الهدايات والعِبر التي جاءت من طريق الوحي لم يكن للنبي ﷺ معرفة بها قبل أن يُوحى إليه ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ (9) مما ينفي بشـــرية القرآن ويؤكد عظمـة الله ويـدعو إلــى الإيمـان بـه

أولاً. وناسب هذا الامتنان أن يذكر في آخر السورة (**رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ**) وهو من وجوه بيان القرآن وتفوقه على سائر الكلام.

والملاحظ في السورة نوع بليغ من البيان وهو ما يسميه البلاغيون (رد العجز على الصدر) إذ جاء في آخرها(**تلكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**) بعد أن قال في أولها (**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ**) فجاءت هذه السورة وحدة متكاملة يرتبط أولها بآخرها، وتمتلئ بالإعجاز البياني للقرآن وفق الأسلوب القصصي الرفيع كبيان ما في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وما لقيه في حياته من الْعِبَر والدروس التربوية لكل نفس تواقة للحق.

وكان من أهم المقاصد التي سيقت لأجلها بيان خطر الحسد، لاسيما تحاسد القرابة وما يترتب عليه من صنوف الإيذاء بينهم، كما لا يخفى ما في هذه القصة الماتعة من إعجاز غيبي، كونها تحكي تاريخ الأمم وحضاراتها، واقتصادياتها، وقوانينها التجارية والسياسية، وأنظمة حكمها وعقوباتها وغيرها.

وتميزت هذه القصة بالشمول؛ إذ ليس في كتب النصارى ولا اليهود من التفاصيل التي ساقها القرآن فيها، فقد جاءت تامة في أسلوب يجمع بين الإيجاز غير المخل والإطناب غير الممل، ولعل ذلك راجع إلى ما ذكره المفسرون من سبب نزول السورة؛ إذ قالوا إنها نزلت إجابة وتبياناً " لمن سأل تَعنُّتاً من أحبار اليهود؛ إذ رُوي أنهم قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمداً: لِمَ انتقلَ يعقوب من الشام؟ وعن قصة يوسف. فنزلت السورة" (10)، فكان لزاماً أن تروى القصة بإطناب معجز وأسلوب مفحم يقنع الخصم، ويبكت المعاند.

وقد آثر السياق القرآني وصفها بأحسن القصص؛ " لأنه جاء على أبدع الأساليب وأحسنها؛ مشتملاً على العجائب والحِكَمِ والآيات والعِبَر" جاء في الكشّاف: " أنه اقتصّ على أبدع طريقة وأعجب أسلوب، ألا ترى أنّ هذا الحديث مقتص في كتب الأولين وفي كتب التواريخ، وألا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقارباً لاقتصاصه في القرآن " (11) ففي ذلك إشارة إلى أن نزول القرآن بلسان عربي مبين " لنعقل عظمة ربنا ونعرفه، وذلك لا يكون إلا بعد استعمال العقول الصافية، والأفكار المنورة، في الغوص على درر معانيه"(12)

ثم لتبيّن أن للنفس البشرية حداً لا تتجاوزه مهما حاولت الارتقاء في سلم المعارف، وأن الخبرات العلمية والمعارف الحياتية سلوك مكتسب يأتي من طريق التحصيل

العلمي وطلب المعرفة بما يسمى في مصطلح العصر (طرق التعلم) أو من خلال التجربة الحياتية التي تمنح الخبرات وفق سنة التفاعل الحياتي في هذا الكون الفسيح.

تستهل سورة يوسف بتقديم يشد ذهن القارئ، فتقرع الأسماع بنوع ثان بليغ من البيان، حيث تستهل بالحروف المقطعة ﴿ **أَلَـــرٓ** ﴾ التي استأثر الله بعلمها ومعرفتها ولم يُتوصّل إلى رأي قطعي فيها رغم محاولات المفسرين، وقد ناسب ذلك أن يأتي في ختامها بمقابلة جميلة بقوله ـ تعالى-: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ** ﴾ ليستبين القارئ نِعم الله في الإخفاء والإظهار لما أراد ولمن أراد.

وتمضي الآيات بتمهيد جليل في بيان خصائص النفس البشرية في الاحتياج إلى مساعدة الآخرين الذين هم أكثر حنكة وأعمق تجربة في الحياة، لا سيما عند الأحداث ـ صغار السن- ومن ثم كان لجوء يوسف إلى أبيه ليعبّر له رؤياه مدفوعاً بالميل الوجداني الشديد لمن يمثّل أقــرب مفزع بشري يمكن اللجوء إليه في مثل هذه المواقف ﴿ **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** ﴾ لأن الإنسان ما لم يحسن توظيف العقل ينتاب أفعاله شيء من الفوضى الخلقية والغوغائية في التعامل، فتأتي تصرفاته تبعا لانفعالات النفس التي تحوي مجموعة من العواطف المسيطرة كعاطفة الحب والميل الوجداني، لما أودع الله في قلوب الأبناء من محبة الآباء، وهو ما تؤكده وصية يعقوب ليوسف بكتمان أمر الرؤيا عن إخوته الذين ستدفعهم الغيرة للتآمر عليه وإقصائه من ساحة وجودهم ﴿ **قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ** ﴾

ثم تعكس السورة ردود الفعل السلبية تجاه الأحــداث المؤدية إلى الخروج عن حدّ الاعتدال من السلوكيات التي لا تركــن إلى الإيمان بالله، فالإنسان شديد الانفعال، متطرف العواطف لاسيما إن لم ينتهج سبيل الإيمان الذي يعيده إلى حالة من التوازن الطبيعي، وينأى بمزاجه عن التطرف والانحلال، فإن من أقوى الشهوات وأكثرها عمقا في النفس حب الأنا، والحرص على تحقيق ما يمكن من الكمال لها، حيث تبرز عقدة حب النفس وخطر انحرافها وسعيها بحثا عن الكمال الموهوم، ظنا أنه يحقق سعادتها، فتصاب بمجموعة من القضايا السلبية على رأسها الغيرة والحسد، وهو ذاته الذي أنشأ بذور الحقد في نفوس إخوة يوسف حين ظنوا أن أباهم يؤثره عليهم وينصرف بوجهه عنهم ﴿ **إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ** ﴾.

فالإســـراف في الغيرة مرض خطير سرعان ما يتحول إلى لظى تسعر بالأحشاء،

ويصبح الغيور يختزن أحزانه ويبالغ فيها حتى يؤدّي به هذا الشعور إلى فقدان الثقة في كل ما حوله، فيتسرب إلى عقله الظن بأن المجتمع المحيط به يعمل للنيل منه والتنكيل به، فتنقلب مشاعره وأحاسيسه إلى موجات من السخط والحنق، ثم يترجم فيما بعد إلى سلوك عدواني يتفجّر حين تلوح فرصة الانتقام ﴿ **اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً** ﴾

مفهوم الحســــــد:

لغة: هو تمنّي زوال نعمة المحسود، يقال حَسَدَه يَحْسُدُهُ حُسوداً، قال الأخفش: وبعضهم يقول يحسِده بالكسر، والمصدر حَسَداً بالتحريك وحَسادَةً، وحَسَدْتُكَ على الشيء وحَسَدْتُكَ الشيءَ، بمعنى، وتَحاسَدَ القومُ وهم قوم حَسَدَة، مثل حامِلٍ وحَمَلَةٍ (13) ، وقال ابن سيدة:" حسده يحسده ويحسده حسدا وحسده تمنى أن تتحول إليه نعمته أو فضيلته" ، ومنه قول الشاعر:

وترى اللبيب محسدا لم يجترم شتم الرجال وعرضه مشتوم

ورجل حاسد من قوم حسد وحساد وحسدة وحسود والأنثى بغير هاء (14)

ومن صور الحسد المذكورة في القرآن وما كان منهم إلا أنهم بطروا النعمة وقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم. أي حملهم بطر النعمة على أن سألوا ربهم بلسان حالهم وقولهم أن يباعد بين مسافات أسفارهم بإزالة تلك المدن حتى يحملوا الزاد ويركبوا الخيول ويذوقوا طعم التعب هذا في الواقع هو حسد من الأغنياء للفقراء الذين لا طاقة لهم على السفر في المسافات البعيدة بدون زاد ولا رواحل (15)

لا شك أن الحسد من العقد النفسية المدمرة لجوانب الخير في الإنسان، فقد ورد في الحديث عنه ﷺ أنه قال: " **الحَسدُ يأكُلُ الحسنَاتِ كما تأكلُ النَّارُ الحَطَبَ** "، وقال سفيان: (بلغني أن الله تبارك وتعالى يقول: الحاسدُ عدو نعمتي، غيرُ راضٍ بقسمتي التي قسمت بين عبادي). وأنشدوا:

ألاَ قُل لمَن كانَ لي حَاسِدًا أتدري على مَن أسَأتَ الأدَب
أسَأتَ على اللهِ في فِعلِه إذا أنتَ لم تَرضَ لي مَا وَهَب

فهو قضية سلبية خطيرة وخلق ذميم في الشرع، لكونه " أول معصية عُصِيَ الله بها في السماء والأرض أما في السماء فحسد إبليس لآدم وأما في الأرض فقتل قابيل لأخيه

هابيل بسبب الحسد، ثم إن الحسد على درجات. الأولى: أن يحب الإنسان زوال النعمة عن أخيه المسلم وإن كانت لا تنتقل إليه بل يكره إنعام الله على غيره ويتألم به، والثانية: أن يحب زوال تلك النعمة لرغبته فيها ورجاء انتقالها إليه. الثالثة: أن يتمنى لنفسه مثل تلك النعمة من غير أن يحب زوالها عن غيره وهذا جائز وليس بحسد وإنما هو غبطة" (16)

يعد الحسد من أقدم الانفعالات الإنسانية التي رافقت نشأة الوعي البشري، وقد حظي باهتمام خاص في الفكر الديني والفلسفي بوصفه منبعا رئيسا للشر داخل النفس، فإن كان معناه القريب هو تمني زوال النعم عن الآخر، فإن مدلوله الجوهري ضارب في العمق، إذ يعكس اختلالا في إدراك الذات أمام السوا، وقلقا وجوديا ناتجا عن المقارنة.

ففي القرآن يبرز الحسد كإحدى قضايا الشر في أوائل مشهد السرد الإنساني منذ أن حسد الشيطان آدم وزوجه، ومن بعدُ حسد قابيل هابيل وما نجم عن هذا الحسد من خطيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولذا وصفه النبي ﷺ وصفا دقيقا حين قال " **الحَسدُ يأكُلُ الحسنَاتِ كما تأكلُ النَّارُ الحَطَبَ** "، ويقدّم الوصف القرآني الحسد على أنه قوة داخلية تخترق الفطرة وتدفع الإنسان إلى العدوان والتبرير، ولذا فإن هناك فرقا بين الحسد والتمني فالتمني إذا لم يفض إلى حسد في ابتغاء زوال نعمة الغير أو تباغض، فلا نهي عنه؛ لأن التمني: نوع إرادة يتعلق بالمستقبل، وعلى خلافه التلهف؛ لأنه يتعلق بالماضي، وسر النهي عنه: أن فيه تعلق البال بالمتمني ونسيان الأجل، ولذا حرم التمني الذي هو الحسد، وهو نوعان: تمني زوال النعمة من غيره لتحصل له، وتمني زوال النعمة من غيره ولو لم تحصل له، وهو شر الحسد.

وقد يسمى التمني غبطة، وهي تفارق الحسد في كونها خالية من تمني زوال ما لدى المحسود، فمعناها أن يرى العبد نعمة علم أو مال لأحد فيغتبط ويسأل الله تعالى أن يكون له من ذلك العلم أو المال. ولذا فهي محمودة بنص الحديث الذي أُخرج في الصحيح " **لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ القُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ، فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلاَنٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلاَنٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ** "(17) .

فالغبطة إذاً حسد مع عدم تمني زوال النعم من الآخرين أي أن تتمنى أن ترزق ما رزق غيرك مع عدم تمني زواله منه، قال ابن سيده (الغَبْط: أن يتمنى ماله على أن لا يتحول عنه ، غَبَطْته أغبِطه غَبْطاً . أبو عُبَيْد : الغَبْط : هو الحسد.) (18)

أما في الفكر المسيحي فقد عدّ الحسد من الخطايا السبع المميتة حيث يفسد علاقة المرء بربه، وببني جنسه، ويولد مشاعر الغضب والكراهية.

في حين يرى الفكر اليهودي التقليدي أن الحسد نتيجة مباشرة للأنانية وعدم الرضا بما قسمه الله.

وفي الفكر الفلسفي: يعدّ الحسد من العقد النفسية المدمرة لجوانب الخير في الإنسان، فهو أحد الانفعالات السلبية التي حظيت باهتمام كبير في الفلسفة بأنماطها المتعددة، حيث تناوله العقلانيون من حيث كونه شعورا بالضيق والألم نتيجة امتلاك شخص لميزة أو خير ماديا كان أو معنويا يفتقر إليه غيره، ويقترن برغبة في زوال هذا التميز عن الآخر. فيراه أرسطو مثلا ألما ناتجا عن رؤية الآخرين يمتلكون ما يفتقر إليه المرء، لاسيما إذا كان يعتقد أنه يستحقه، أما سبينوزا فقد تصوّره شكلا من أشكال الحزن المرتبطة بتصور نقص في الذات مقارنة بالآخرين، وتصوره غيره ناتجا عن مركزية الذات حيث يقارن الفرد نفسه دائما بالآخرين فينشأ هذا الشعور نتيجة التفاوت الطبقي أو الاجتماعي أو الثقافي، فيما ذهب بعض أصحاب الفلسفة الوجودية مثل سارتر إلى أنه انعكاس للاغتراب النفسي وفقدان المعنى؛ لاسيما أن أفلاطون قد أشار في محاولات عديدة إلى أن الحسد يعود إلى الجزء التنافسي من أجزاء النفس، حيث يحرك في الإنسان مشاعر الحسد، ومن ثم فهو عقبة بين النفس وإدراكها الخير الحقيقي؛ لأن الحسد يؤدي إلى الكراهية والعداء بين الناس، ويسهم في إيجاد البيئات غير الصحية بما يؤدي إليه من توترات مجتمعية تعيق التقدم، ويضعف روح التعاون؛ لأن الحاسد لا يحب النجاح لأحد، بل يتمنى زوال الخير عن الجميع.

لقد عرفت الحضارة العربية علم العلامات الدالة أو ما يسمى اليوم بمصطلح لغة الجسد، ومارسه الناس في حياتهم، واعتمدوا عليه في اتصالاتهم، قبل أن يقعّدوا قواعده، ويضعوا أصوله، فمن طليعة ترجمة العلامات ما ورد في حديث أبي بكر حين عهد إلى عمر ـ رضي الله عنهما ـ بالخلافة، قال: " كُلُّكُم ورِمَ أنْفُــهُ" ، أي : اغتاظ؛ لأن المغتاظ يورم أنفُهُ ويَحْمَر، وهي لفظة إشارية وعلامة من العلامات التي تسبق وقوع الأحداث تحكي الواقع بصدق ويقين، وفي القرآن المجيد لم يوح الله ليعقوب ﷺ بشأن يوسف وما سيحدث له، لكنه وبحكم قراءة سلوك الآباء للأبناء كان يتلجلج في صدره شيء من الفهم لسلوك بقية أبنائه حول أخيهم فقال : (**لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداًۖ**) وقال (**وَأَخَافُ أَنْ يَّأْكُلَهُ اُ۬لذِّيْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَۖ**).

ومن ثم نستطيع القول بأن الحسد ليس فقط انفعالا نفسيا؛ بل ظاهرة وجودية

وأخلاقية واجتماعية تعكس عمق العلاقة بين الأنا والسوا، تعبّر عن صراع الإنسان مع قيم العدالة والكرامة والهوية، لذا دعت الأديان السماوية والفلسفات الأخلاقية إلى تجاوزه عبر الاعتراف بقيمة الذات والارتقاء الاخلاقي وتعزيز ثقافة العطاء والعدالة؛ لأن الحاسد يضر نفسه باكتساب الذنوب، فهو يفعل حراما وسوء أدب مع الله بكراهية إنعامه على من أراد من عباده دون غيرهم، واعتراضا عليه في تدبير شؤون خلقه، فضلا عن تألم قلب الحاسد واكتوائه بالهم والغم.

إن الإنسان بحكم طبيعته البشرية مسرف مغالٍ في حبه وأحاسيسه وعواطفه، إذا أحب شيئا أقبل عليه بكليته، وإذا كره شيئا حاول التخلص منه أو إزاحته من هامش حياته متجاوزاً حدود القرابة والصلات الاجتماعية، فقد ذهب بعض المفكرين إلى أن الشرور لم تأت في أصلها إلا بدافع من الخير، قال بوبر في روايته " من أجل السماء " : " إن الأفعال الشريرة ترتكب بدافع من الحب، وفي مثل هذه الحالة لا يمكن السيطرة عليها، ويضرب مثلا بإخوة يوسف وما فعلوه معه نتيجة حبهم لوالدهم، ورغبتهم القوية في أن تصبح منزلتهم مثل منزلة يوسف "(19)

وهذا موافق لما تنطق به الآيات التي ترسم مشاهد الأحداث التي دارت بين أبناء يعقوب وأخيهم ﴿ **اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ** ﴾ فالعدوان سلوك مكتسب في النفوس، وظاهرة بشرية عرفها الإنسان منذ بدء الخليقة، يهدف إلي تحقيق رغبة في السيطرة وإيذاء الآخر تعويضًا عن الحرمان أو بسبب الغيرة، ويُعدّ استجابة طبيعية للإحباط تمليه مواقف الغضب والحسد، أو الدفاع عن الذات والممتلكات، أو الرغبة في الانتقام، أو الحصول على مكاسب معينة ، وغالباً ما ينجم عنه إلحاق الأذى البدني أو النفسي أو المادي بالمعتدى عليه. فهو سلوك يقصد به المعتدي إيذاء المعتدى عليه، قال علماء النفس :" العدوان طبيعة فطرية في التكوين الإنساني" ، وذهب بعضهم إلى أنه" شعور مكتسب يأتي عبر التعلم والمحاكاة وتسهم أساليب التنشئة الاجتماعية في اكتسابه بدرجات متفاوتة تبدأ بالكره والحقد تجاه الآخرين ثم تنمو هذه المشاعر فتصبح مجموعة من الدوافع المتضمنة للنشاط التخريبي والميل الطبيعي للتشاجر والانتقام"(20)، وهو ما يسمى بالعدوان العدائي الذي يهدف إلي إيقاع الأذى بالآخر فيعقد النية على الانتقام بعدوان مقصود، فكان فيما حدث من إخوة يوسف " آية من عبر الأخلاق السيّئة وهي التّخلّص من مزاحمة الفاضل بفضله لمن هو دونه فيه أو مساويه بإعدام صاحب الفضل وهي أكبر جريمة لاشتمالها على الحسد ، والإضرار بالغير ، وانتهاك ما أمر الله بحفظه"(21) ؛ إذ

كان سلوكهم العدائي مسبوقا بالشعور بالإحباط والفشل في الحصول على إثرة الأب الذي يبدو في نظر أبنائه – معرضاً عنهم ولا يوليهم من الاهتمام ما يشبع احتياجاتهم النفسية وما يشعرهم بالحب والعطف الوالدي، لذا انقلب هذا الشعور بالإحباط إلي سلوك عدائي عدواني ، وكان للانفعال والغيرة أثر مباشر في تحديد نوعية الخلاص من يوسف للحصول على إثرة الأب من بعدُ ﴿ **قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ**﴾

فبالنظر فيما أقرّته تعاليم الدين ووحيه نجد أن النفس جبلت في أصلها على الفطرة السليمة التي تمثّل قيم الخير بدءا من العدل وانتهاء بالحب، (يولد المولود على الفطرة وأبواه يهودانه أو يمجسانه .....) لكن حينما تدخل معترك الحياة وتتفاعل مع معطياتها سلبا وإيجابا قد تكتسب من الطباع والسلوك ما تمليه ظروف البيئة والعصر، ومن ثم يمكن القول: إن إخوة يوسف لم يكن الشر مستأصلاً في نفوسهم، ولم يكن السلوك العدواني فطرياً لديهم وإنما اكتسبوه من واقع التجربة الحياتية التي مروا بها وكانوا يعيشونها مع أبيهم، حين رأوه يؤثر أخاهم فتوّلد في نفوسهم نوعاً من الغيرة، وكان كل منهم يريد أن يحظى بمحبة أبيه مما دفعهم إلى تدبير هذه المكيدة التي ساق القرآن أحداثها في أسلوب بديع ﴿ **قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾

ولقد أشار النفسانيون إلى أن السلوك العدائي ينجم عن حالات الإحباط التي يتعرض لها الفرد، فلابد أن يسبقه إحباط وفشل في تحقيق الأهداف، ويمكن الوقوف على هذا من خلال المشهد التالي المعبّر عن إصرار الإخوة على التخلّص من أخيهم ﴿ **اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا .... قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ**﴾ لتبدأ ميكنة الحسد في عرض ما دُبّر من ترتيبات وحشية تقصي من يحول بينهم وبين وجه أبيهم.

في الأدبيات الدينية:

حينما بدأ اهتمام يعقوب المتنامي، فرحاً بما سيؤول إليه حال يوسف وما يكون عليه شأنه، صار الاهتمام لافتاً لأنظار أبنائه الآخرين ومن هنا تبدأ آثار الحسد، وتبرز خطورة عدم الاعتدال في حب النفس، فنشأت بذور الحسد في نفوس الإخوة ﴿ **لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ** ﴾

ولعل من آثار الحسد العدوان الذي يعدّ خصيصة مكتسبة في النفوس، وظاهرة

بشرية عرفها الإنسان منذ بدء الخليقة، وهو سلوك اجتماعي يهدف إلى تحقيق رغبة في السيطرة وإيذاء البشر تعويضًا عن الحرمان أو بسبب الغيرة. ويُعدّ استجابة طبيعية للإحباط تمليه مواقف الغضب أو الغيرة، أو الدفاع عن الذات والممتلكات، أو الرغبة في الانتقام، أو الحصول على مكاسب معينة، وغالباً ما ينجم عنه إلحاق الأذى البدنــي أو النفسي أو المادي بالمعتدى عليه. فهو سلوك يقصد به المعتدي إيذاء المعتدى عليه، نقل الثعلبي عن الحسين بن الفضل قوله: " إنَّ الله جمع الشرور في هذه الآية وختمها بالحسد ليعلم أنه أخسّ الطبائع" (22)

ويرى علماء النفس أن: العدوان طبيعة فطرية في التكوين الإنساني بينما يذهب بعضهم إلى أنه شعور مكتسب يأتي عبر التعلم والمحاكاة وتسهم أساليب التنشئة الاجتماعية في اكتسابه بدرجات متفاوتة تبدأ بالكره والحقد تجاه الآخرين ثم تنمو هذه المشاعر فتصبح مجموعة من الدوافع المتضمنة للنشاط التخريبي والميل الطبيعي للتشاجر والانتقام (23)، وهــو ما يسميه النفسانيون بالعدوان العدائي الذي يهدف إلي إيقاع الأذى بالآخر المحسود، فيعقد النية على الانتقام بعدوان مقصود

الخاتمــــة:

في ختام هذا البحث الذي يجمع بين التفسير الموضوعي والإيحاء القصصي للقرآن الكريم أسوق جملة من النتائج التي توصل إليها البحث؛ إذ تكشف مثل هذه الدراسات عن:

1- تُشــير الدراسات السيكولوجية إلى أن الحسد باعتباره سلوكا مذموما ينجم عن مشاعر سلبية يؤدّي إلى الغيرة والغضب والبغض، ومن ثم محاولة الانتقام؛ لأنه ليس مجرد شعور داخلي، بل هو عقدة نفسية ودافع قوي قد يدفع بالحاسد إلى الانخراط في سلك الإجرام.

2- يبرز القرآن الكريم من خلال قصص إبليس مع آدم، وقابيل وهابيل، ثم يوسف مع إخوته مدى تأثير الحسد على العلاقات الاجتماعية، وتدمير الروابط الأسرية، والتسبب في أشنع الأفعال.

3- تثبت قصة يوسف مدى تأثير الحسد باعتباره شعورًا سلبيا على العلاقات الإنسانية عامة والأقارب بشكل خاص.

الهوامـــــــــــــش:

1 - سورة النحل، الآية 111
2- سورة المدثر، الآية 38
3- سورة الشمس: الآية 8
4- البحر المديد - أحمد بن محمد ابن عجيبة - دار الكتب العلمية - بيروت –ط 2- 2002 م 8/ 560
5- ينظر بحثنا المنشور بمجلة كلية الآداب –جامعة الزاوية –2020 – ديسمبر - العدد 31-
6- التحرير والتنوير - الشيخ محمد الطاهر بن عاشور -الطبعة التونسية - دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - 1997 م- 12 / 197
7- الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني - دار الجيل، بيروت-ط1- 1412هـ -تحقيق: علي محمد البجاوي 2 / 444
8- ابن عادل الدمشقي - اللباب في علوم الكتاب- تحق عادل عبد الموجود وآخرين – دار الكتب العلمية – بيروت – 2011م - 11/ 5
9- يوسف: 3 .
10-ابن عجيبة - 3 / 354 دار الكتب العلمية – 2002 م
11- الزمخشري 2 / 415
12- ابن عجيبة، 3/ 255
13-الصحاح في اللغة: الجوهري موقع الوراق(http://www.alwarraq.com)
14- المحكم والمحيط الأعظم: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده ت 458هـ تحقيق عبد الحميد هنداوي- دار الكتب العلمية-2000م - بيروت – 3/ 170)
15- الجزائري، جزء: 2 رقم الصفحة: 56
16- التسهيل لعلوم التنزيل – ابن جزي الكلبي عند تفسير الفلق....
17- ابوبكر الجزائري – أيسر التفاسير -469/1.
18- المخصص - لابن سيده أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده - دار إحياء التراث العربي - بيروت - 1417هـ 1996م الطبعة: الأولى تحقيق: خليل إبراهيم جفال – 4/ 86
19- الله والإنسان في الفكر اليهودي المعاصر: علي حسين قاسم –المكتبة المصرية – الاسكندرية – ط1 – 2004 م –ص 160
20- انظر معتز سيد وعبد اللطيف محمد، علم النفس الاجتماعي، دار غريب، القاهرة، ط2001، ص72، وصديقة علي أحمد، دراسة لخفض العدوانية لدى الاطفال، حولية كلية البنات، جامعة عين شمس، العدد الثاني، 1995م، ص 13
21- ابن عاشور – التحرير والتنوير – الطبعة التونسية -دار سحنون -1997م – 12 / 222
22- الكشف والبيان - أبو إسحاق أحمد الثعلبي دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - 1422 هـ - 2002 م ط1- تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور 1/ 340
23- انظر معتز سيد وعبد اللطيف محمد، علم النفس الاجتماعي، دار غريب، القاهرة، ط2001، ص72، وصديقة علي أحمد، دراسة لخفض العدوانية لدى الاطفال، حولية كلية البنات، جامعة عين شمس، العدد الثاني، 1995م، ص 13